[٤٨] الذكورة – الأنوثة

المفهوم: ربما يتبادر في الأذهان سؤال بماهية الأسباب التي تؤدي إلى إحداث الفروق بين الجنسين ذكراً كان أم أنثى. فقد تبين أن هذه الفروق تعزى في المقام الأول إلى عاملين: أولهما: العامل البيولوجي، وثانيهما: العامل النفسي.

أولا: العامل البيولوجي:

تحدث الفروق بين الذكور والإناث بسبب طبيعة الهرمونات التي تفرز في دم كل منهما؛ فقد تبين أن هرمون التستوسترون Testosterone هو الهرمون المسئول عن الذكورة. في حين أن هرمون الإستروجين Oestrogen هو الهرمون المسئول عن الأنوثة. ويصاحب إفراز كل هرمون في الدم في كل من الذكور والإناث بعض المظاهر الجنسية الثانوية. غير أنه لا يعرف كائن مطلق الذكورة أو الأنوثة. إذ إن كل كائن يحوي النوعين من الهرمونات، وإن كانت نسبة إحدهما إلى الأخرى تختلف، ويتراوح تدريجياً بين الذكورة المطلقة والأنوثة الكاملة، وهما نهايتان نظريتان فحسب. ولذا فإن بعض الرجال أشد ذكورة من غيرهم، أو أضعفها، وبعض النساء أكثر أنوثة من غيرهن أو أقلها، وبينهم تسلسل من الدرجات الوسيطة التي لا نهاية لها. وهذا هو السبب في تحدث بعض الرجال وترجل بعض النساء. وإذا تعممت مظاهر الرجولة: كنمو الأعضاء الجنسية الخارجية، وظهور شعر الوجه والجذع، وتضخم العضلات، وروح النضال والمنافسة. كما يسبب عدم إفراز الإستروجين عند النساء غياب مظاهر الأنوثة: ككبر الثديين، واستدارة الجسم، وغزارة شعر العانة، وتشحم الإليتين (Hutt, 1972).

ويتحدد نوع الجنين ذكراً كان أم أنثى عند تلقيح البويضة بعدد الكروموسومات التي تضمها، ولا يمكن تغييره بأية طريقة، ثم ينمو كل من النوعين الذكر أو الأنثى، نمواً متشابهاً كل التشابه، إلى أن تظهر الخصية في الجنين الذكر وتبدأ في صنع التستوسترون. وعندئذ، وتحت تأثير هذا الهرمون تتحول الأعضاء التناسلية الخارجية إلى شكلها المميز. كما يظهر المبيض في الجنين الأنثى ويبدأ في إفراز الإستروجين الذي يصبغ عليها ملامح الأنوثة.

ثانيا: العامل النفسي:

يوجد مفهومان من المفاهيم النفسية اللذان يكونان بمثابة القاعدة الأساسية لدراسة تطور دور الجنس: أولهما: التنميط الجنسي، وثانيهما: التوحد مع دور الجنس.

(١) التنميط الجنسي: ويقصد بالتنميط الجنسي اكتساب السلوك سواء المرتبط بالأدوار الجنسية الذكرية أو بالأدوار الجنسية الأنثوية عند مراحل عمرية مختلفة أثناء فترة النمو. والتنميط الجنسي ما هو إلا عملية يكتسب الأفراد من خلالها القيم ويتبنون الأنماط الثقافية للسلوك المنمط جنسياً (Mischel, 1970) كما يقصد بالتنميط الجنسي مجموعة من المعتقدات والاتجاهات وأوجه النشاط التي تحكم الحضارة التي ينشأ فيها الطفل بأنها مناسبة للجنس الذي ينتمي إليه. ذلك أن غالبية أعضاء المدنية الغربية يشتركون في اعتقاد عام مؤداه أنه لابد وأن يختلف الذكور عن الإناث في السلوك. على أن هذه المعتقدات المتصلة بأوجه الخلاف قد تكون ضمنية وغير شعورية في بعض الحالات، كما أنها قد تكون صريحة يشجع عليها بصفة شعورية واعية. ومعظم الوالدين يثيبون السلوك الذي يرونه مناسباً لجنس طفلهم ويعاقبون الاستجابات التي يرونها غير مناسبة. ومن شأن هذه الاتجاهات المنمطة جنسياً أنها قد تنتقل من جيل إلى جيل يليه بشيء قليل من التغيير في المحتوى. كما توجد عدة دوافع تؤدي إلى اتصياع الطفل لأنواع السلوك المنمطة جنسياً وهي:

(١) الرغبة في المدح، والمودة والتقبل من جانب الأبوين والأقران ورضاهم عن أنواع السلوك المنمطة جنسياً.

(٢) الخوف من العقاب أو النبذ بسبب السلوك غير المناسب.

(٣) التوحد مع الأب من نفس الجنس، أو مع بديل الأب، أو مع ذات مثالية متخيلة.
(سلامة وجابر، ١٩٧٠: ٣٣٢-٣٣٤)

وبالإضافة إلى ذلك، يظهر معظم الأفراد السلوك الجنسي المناسب الذي يوجه نحو نظرائهم من الجنس الآخر، وهذا إنما يعكس مظهراً من مظاهر التنميط الجنسي (Mussen, 1968). ويتم تعلم الدور الجنسي منذ الطفولة، حيث يتسم الذكور بالسيطرة والعدوان والاستقلال والتنافس والنشاط، في حين تتسم الإناث بالسلبية والخضوع والاعتماد وعدم التنافس والطاعة، ويشير موني وإيراهارت Money and Ehrhandt (١٩٧٢) إلى أنه إذا عومل الولد كأنثى حتى سن الرابعة فإنه لا ينمي مفهوماً سليماً وتطابقاً صحيحاً مع نفس جنسه.

(٢) التوحد: من الصعوبة بمكان تعريف هذا المفهوم لأنه ربما يتغير عبر السنوات وفقاً لصياغة وتعديل نظريات الشخصية (Mischel, 1970) ويمكن اعتبار التوحد نوعاً من أنواع السلوك. فإذا قلنا: إن شخصاً ما يتوحد مع شخص آخر، فإن هذا يعني أن هذا الشخص يسلك مثلما يسلك الشخص الآخر في عديد من التصرفات مثل عادات اللغة، وتوجه القيم، والميول وأساليب التفكير. ومع ذلك، فإن التوحد لا يمكن تعريفه بسهولة من خلال التماثل أو التشابه السلوكي. وبعبارة أخرى، فإنه ربما يوجد شخص ما يرغب في أن يحاكي شخصاً آخر، وعندما تحدث هذه المحاكاة تتم رابطة انفعالية قوية مع هذا الشخص. لذا، فإنه يمكن تعريف التوحد على أنه عبارة عن علاقة عاطفية قوية ومجموعة من العمليات أو الميكانيزمات يحاول الأطفال محاكاتها (Hurlock, 1972). ويبدو أن مصطلح التوحد متزامن مع مفهوم التنميط الجنسي.

ويشير مفهوم التوحد إلى العملية التي تجعل الطفل يفكر ويشعر ويسلك وكأن خصائص شخص آخر أو جماعة أخرى من الناس خصائصه (Kagan, 1965) إلا أن عملية التوحد قد تكون عملية لا شعورية إلى حد كبير أي أن الطفل قد يتوحد مع نموذج ما من غير أن يكون على وعي بذلك فالتوحد ليس عملية تبدأ بإرادة الفرد. كما تلعب الضغوط الاجتماعية دوراً كبيراً في عملية التوحد، ومثال ذلك أن معظم الذكور يميلون إلى التوحد مع آبائهم، في حين تميل الإناث إلى التوحد مع أمهاتهن.

ويعزو هذا إلى أن البيئة الاجتماعية تشجع الطفل على أن يطبع نفسه على نسق الأب المماثل له في الجنس، وتعاقبه على التوحد مع سمات الأب المخالف له في الجنس. أي أن الذكر يواجه ضغطاً يضطره إلى تقليد الأب وهو كلما زاد في تقليد الأب، ازدادت قوة عملية التوحد عنده. ومن ناحية أخرى، يترك الطفل قدراً كبيراً من التشابه بينه وبين الوالد المماثل له في الجنس، وهذا من شأنه يؤدي إلى تقوية عملية التوحد مع الوالد المماثل (سلامة وجابر، ١٩٧٠: ٣٤١-٣٤٢). كما ينبغي الإشارة إلى أن الآباء ليسوا يمثلون وحدهم النماذج التي يتوحد معها الأطفال. إذ قد يتم التوحد مع الكبار الذين ينظر إليهم على أنهم أقوى وأكثر كفاءة من الطفل. والإناث اللاتي لهن إخوة ذكور أكبر منهن يملن إلى "الاسترجال". على حين أن الذكور الذين لهم أخوات أكبر منهم يكون عندهم قدراً كبيراً من الخصائص الأنثوية (Koch, 1956). أي أن الأنثى ذات الأخ الأكبر تكون أكثر ميلاً إلى العدوان والمثابرة والحسم في المشكلات من الأنثى ذات الأخت الكبرى أو الأخت الصغرى، كما أن الذكور ذوي الأخوات الأكبر يكونون أقل ميلاً إلى العدوان من الذكور ذوي الإخوة الأكبر.

ومع ذلك، يعتبر الوالدان أول موضوعات التوحد بالنسبة للطفل، نظراً لما يمثلانه - في نظره - من سلطة ومعايير وحب وكل ما يمس حياته في هذه المرحلة المبكرة من عمره. إلا أن موضوعات التوحد تتغير وتتسع بنمو الطفل واتساع نطاق إدراكه واهتمامه، حيث تصبح لكل مرحلة عمرية - تقريباً - أنماط تفضيلية من الموضوعات التي ينجذب نحوها وفق ما يتراءى له أنها تتفق مع أهدافه ورغباته النامية. وقد تكون هذه الموضوعات شخصيات حقيقية أو خيالية، أفكاراً أو مثاليات أو عقائد، وقد يتوحد الطفل مع كل أو بعض الخصائص والسمات التي تميز

هذه الموضوعات حسبما يجد فيها من مغريات يرى أنها تساعده على بلوغ هدفه وهو خفض التوتر، فإذا تحقق له ذلك استدمجت الصفة أو الصفات المطلوبة وإلا أصبح التوحد غير ذي موضوع. وهكذا لا تخلو هذه العملية من بعض المحاولة والخطأ ويكون البناء النهائي للشخصية عبارة عن مجموع ما تم من توحدات في فترات زمنية متباعدة من حياة الطفل (علي، ١٩٨٨: ١١٠).

وبالإضافة إلى ذلك، توجد ثلاث نظريات رئيسية تناولت مفهومي التمييز الجنسي والتوحد، وهذه النظريات هي نظرية التحليل النفسي، والنظرية المعرفية، ونظرية التعلم الاجتماعي.

(أ) نظرية التحليل النفسي:

ترى نظرية التحليل النفسي أن التوحد مع الجنس الملائم يحدث كنتيجة لحل الموقف الأوديبي. ففي المرحلة الأولى يميل الطفل بحبه إلى الوالد من الجنس الآخر ولكنه على مستوى ضعيف من الوعي ويتمنى موت نفسه وهو الوالد من نفس الجنس.

وفي وقت ما يبدأ الطفل في التفكير قائلاً لنفسه: إذا كان هذا هو إحساسي نحوه وتمنيت موته فربما يكون هو الآخر يشعر نفس المشاعر نحوي. كما أنه أضخم ويمكنه أن يحول مشاعره إلى فعل. فيبدأ الطفل في الخوف من الوالد من نفس الجنس. وكنتيجة لهذا الخوف يتخلى عن الوالد من الجنس الآخر كموضوع للحب ويتوحد مع الوالد من نفس الجنس. وعند التوحد مع الوالد من نفس الجنس يتطابق الطفل أيضاً مع المجتمع ككل وينمي ذاته العليا فيصبح متقبلاً قوانين المجتمع على أنها صحيحة وعادلة ويحاول إتباعها ويشعر بالذنب عندما يعتدي عليها (عبد السلام، ١٩٨٣: ٤٥٩-٤٦٠). كما تشير نظرية التحليل النفسي (Freud, 1949) إلى أن عملية التوحد من أصعب العمليات لنمو الشخصية الكلية. ويمكن تبسيط عملية التوحد بأنها تبدأ بميل قوي لكل من الذكور أو الإناث وعلاقة حب وطيدة مع الأم ويتم هذا في مرحلة الطفولة، ويطلق على هذه العملية التوحد الاتكالي Anaclitic identification، وهي تعتبر بمثابة العملية الرئيسية للإناث.

أما الذكر فإنه يبحث عن طريقة ما حتى يمكن من خلالها أن يستأثر بالأم وتصل مطالب الذكر لحب وشد انتباه الأم واهتمامها خاصة في سنوات ما قبل المدرسة الابتدائية، كما تعتريه بعض المشاعر العدائية والتنافسية تجاه الأب حتى يستأثر بالأم، ولكن الطفل يدرك أن الأب قوي ويمتلك القوة والقدرة لكي يتجاهل منافسة الصغير، فيؤدي هذا إلى استجابة خوف عامة، ويبدأ هذا الخوف خاصة عندما كان عمر الطفل خمس أو ست سنوات، وهذا هو العمر الذي يتكون فيه القاعدة الأساسية لتوحد الذكر الدفاعي مع الأنا. ويضع هذا التوحد حداً لنهاية الخوف والتناقض العدائي مع الأب، وهذه العملية يمكن وصفها بالعبارة التالية: إذا لم تستطيع أن تتفوق عليه، انضم إليه، لأن القلق أو الخوف يكون رد فعل لهذا التناقض المستحيل مع الأب. كما لا يقتصر أهمية مفهوم التوحد على توضيح ديناميات النمو النفسي وتكوين الشخصية عند فرويد، بل يكاد أن يكون من المفاهيم الأساسية في أي نظرية للنمو. فهو في معناه قريب من مفهوم المحاكاة أو التقليد، لكن فرويد لا يقصد به مجرد التقليد العارض أو السطحي، فهو يشير إلى ما يعتري الشخصية من تغيرات نتيجة استدماجها بخصائص وسمات شخص آخر، مع ثبات هذه التغيرات الجديدة واستمرارها على نحو تصبح فيه الشخصية بعد التوحد غير ما كانت عليه قبله. وهكذا ينظر للتوحد كوسيلة لاكتساب أو تعلم خصائص جديدة بما في ذلك أساليب إشباع الحاجات وخفض التوترات والتعامل مع الذات والعالم الخارجي على حد سواء. وترجع خطورته إلى أنه يحدث غالباً في مرحلة مبكرة من الطفولة وعلى مستوى لا شعوري.

(ب) النظرية المعرفية:

لقد اتسعت أفكار بياجيه عن النمو العقلي المعرفي حتى تقدم تفسيراً شاملاً لتطور دور الجنس. والمُسَلَّمَة

الأساسية في هذه النظرية هي أن التنميط الاجتماعي هو الذي يحدد الدور الذكري أو الدور الأنثوي للأفراد في كل ثقافة من الثقافات الإنسانية (Kagan, 1964) وتزود هذه التنميطات الاجتماعية بمجموعة من الرموز. ويبدأ التنميط الجنسي عندما يلقب الطفل بذكر أو أنثى.

ويرتبط هذا اللقب بمجموعة من التفاعلات الموجبة داخل المنزل (Kohlberg, 1966). وتخدم هوية النوع أو مفهوم الذات المرتبط بالنوع فيما بعد كمحدد للاتجاهات الاجتماعية والقيم. وتنشأ القيم المرتبطة بالذكورة أو الأنوثة من الحاجة إلى استيعاب الأشياء التي تكون متسقة مع هوية الجنس.

(ج) نظرية التعلم الاجتماعي:

وفقاً لنظرية التعلم الاجتماعي، فإن الطفل عند مراحل عمرية مبكرة يتعلم نوعه، أي أن الولد يتعلم بأنه ولد، والبنت تتعلم بأنها بنت، وما هو المتوقع من كل منهما. ويتأثر هذا التعلم بالتقليد والتعزيز المباشر، والتعزيز التعويضي، والمعرفة الاجتماعية. ويعتبر الآباء أو القائمون على تربية الأطفال بمثابة النماذج الرئيسية ووكالات التعزيز المباشر للسلوكيات المنمطة جنسياً.

فنجد أن الوالدين يشجعان في الذكور سلوكيات السيطرة، والتوكيدية، والاستقلال المعرفي، والنشاطية. في حين يشجع في الإناث سلوكيات الدفء، والحساسية، والعطف، والمساعدة والتأييد، والتعاون. وعلى الجانب الآخر، نجد بعض الأطفال يسلكون سلوكيات ذكرية وأنثوية، وهذا نتيجة لتعزيز الوالدين مثل هذه السلوكيات، فيكون الناتج لهذه السلوكيات، الخنوثة النفسية (Kelley and Worrell, 1976). ويرى كاجان Kagan (١٩٦٥) أن عملية التوحد نوع من أنواع التعلم يشبه الأنواع الأخرى من التعلم وأنها عرضة لكميات التعزيز الإيجابي أو السلبي، كما أن التأثير النسبي للتعزيزات التي يقوم بها كل من الوالدين هو الذي يحدد مدى ملاءمة توحد الطفل مع الدور الجنسي.

ومما لا شك فيه، أن عمليات التطبيع الاجتماعي والأنماط الثقافية المختلفة تلعب دوراً كبيراً في عمليات التنميط والتوحد الجنسي.

القياس: تعددت المقاييس السيكومترية لقياس الذكورة – الأنوثة؛ مثل ما يلي: مقياس الأنوثة المشتق من مقياس كاليفورنيا النفسي من إعداد جف (هنا وهنا، ١٩٧٣)، ومقياس الذكورة – الأنوثة المشتق من مقياس الشخصية المتعدد الأوجه من إعداد هاثاواي وماكنلي (هنا وآخرون، ١٩٧٨). ويقوم تصميم هذه المقاييس في معظم الحالات على أساس التمايز والاختلاف بين الذكور والإناث في كل من الميول والسلوكيات (موسى وأبو ناهية، ١٩٨٦). وإلى جانب هذا، قام إيزنك وويلسن Eysenck and Wilson (١٩٧٥: ٩١-١٠٥) بإعداد مقياس فرعي لقياس الذكورة – الأنوثة. ويركز هذا المقياس مباشرة على العبارات التي تميز بين الذكور والإناث إسبيريقياً. ويشيرا في موضع آخر (P: 112) إلى أن الأفراد الذين يحصلون على درجات مرتفعة على هذا المقياس بأنهم لا يخافون من الحشرات الزاحفة، ورؤية الدم، ويتسمون بالعنف والقسوة، والصرامة والجزم، ولا يميلون إلى إظهار الضعف أو أي نوع من أنواع العواطف مثل البكاء أو التعبير عن الحب، ويعتمدون على الاستدلال وليس على الحدس في الحكم على الأشياء، بينما الأفراد الذين يحصلون على درجات منخفضة على هذا المقياس فإنهم ينزعجون من رؤية الدم والعنف، ولديهم اهتمامات كبيرة بشأن الموضوعات الرقيقة مثل: الرومانسية، وحب الأطفال، والفنون والآداب، وحب الزهور والملابس. ويتكون المقياس من ثلاثين عبارة، وتتراوح الاستجابة على كل عبارة بنعم أو لا. وتشير الدرجة المرتفعة إلى الذكورة، بينما تشير الدرجة المنخفضة إلى الأنوثة وتم تعريب المقياس إلى اللغة العربية (موسى، ١٩٩٤).

الصدق: من أجل حساب الصدق التلازمي لمقياس الذكورة – الأنوثة من إعداد إيزنك وويلسن

Eysenck and Wilson (١٩٧٥)؛ قام موسى (١٩٩٤) بتطبيقه مع مقياس الذكورة – الأنوثة المشتق من اختبار الشخصية المتعدد الأوجه (هنا وآخرون، ١٩٧٨) على سبعين طالباً؛ حيث تراوح متوسط أعمارهم ٢٢,٥١ سنة؛ والانحراف المعياري ± ٢,٩٩، وعلى سبعين طالبة؛ حيث تراوح المتوسط الحسابي لأعمارهن ٢٢,٨٧ سنة، والانحراف المعياري ± ٢,٥٧. ولقد كان معامل الارتباط بين المقياسين كما يلي: ٠,٨٢، و٠,٧٩ لعينتي الذكور والإناث؛ على الترتيب، وهي معاملات دالة إحصائية عند مستوى ٠,٠١.

الثبات: تم حساب ثبات مقياس الذكورة – الأنوثة باستخدام أسلوب إعادة التطبيق، وذلك من خلال تطبيقه على عينة الصدق المذكورة سلفاً، بفاصل زمني بين التطبيقين قدره أسبوعين. وقد بلغت معاملات الارتباط بين الإجرائين ٢,٨٥، و٠,٨٢ لعينتي الذكور والإناث على التوالي (موسى، ١٩٩٤).

مقياس الذكورة – الأنوثة

	العبارات	نعم	لا	مفتاح التصحيح
١-	هل تميل إلى المشاركة في الأنشطة العنيفة؟	( )	( )	نعم
٢-	في المدرسة، هل فضلت الأدب الإنجليزي على العلوم العامة؟	( )	( )	لا
٣-	هل تستمتع بقراءة القصص الرومانسية؟	( )	( )	لا
٤-	هل أنت حساس جداً لأي مظهر للجمال في البيئة المحيطة؟	( )	( )	لا
٥-	هل تستمتع بالشراء من المحلات؟	( )	( )	لا
٦-	هل تشعر بميل إلى البكاء إذا ما شاهدت فيلماً حزيناً؟	( )	( )	لا
٧-	هل تخاف من الأشياء الزاحفة مثل الديدان والصُّكب؟	( )	( )	لا
٨-	هل قوانين الطبيعة تثير انتباهك أكثر من العلاقات الشخصية؟	( )	( )	نعم
٩-	هل لديك أحياناً تخييلات سادية (مثل التلذذ بعذاب الآخرين)؟	( )	( )	نعم
١٠-	هل تحب الذهاب إلى أماكن الرقص؟	( )	( )	لا
١١-	هل تحب مشاهدة العنف والتعذيب في الأفلام؟	( )	( )	لا
١٢-	هل رؤية كمية كبيرة من الدم تجعلك تشعر بالإغماء؟	( )	( )	لا
١٣-	هل تضايقك الدعابات الخشنة وغير المهذبة؟	( )	( )	لا
١٤-	هل تعتمد على الحدس كدليل على أن الشخص ثقة أم لا؟	( )	( )	لا
١٥-	هل تنهار وتبكي أحياناً؟	( )	( )	لا
١٦-	هل تستمتع بمشاهدة الألعاب البدنية التنافسية مثل الملاكمة – كرة القدم؟...	( )	( )	نعم
١٧-	هل تخاف إلى حد ما من الظلام؟	( )	( )	لا
١٨-	هل تهتم كثيراً بالقصص العلمية؟	( )	( )	نعم
١٩-	هل تجد من الصعوبة أن تقاوم حمل وتدليل حيوانات صغيرة ذات فراء؟..	( )	( )	لا
٢٠-	هل كثيراً ما يخطر لك أن تقع في الحب؟	( )	( )	لا
٢١-	هل تفزع بسهولة عندما يظهر لك شخص ما فجأة دون أن تتوقع ذلك؟..	( )	( )	لا
٢٢-	هل تفكر في الاشتراك في لهو معربد؟	( )	( )	نعم
٢٣-	هل تستمتع بالغناء مع جماعة من المنشدين (خاصة الغناء الديني)؟	( )	( )	لا
٢٤-	هل لديك حب الاستطلاع لمعرفة كيفية عمل الآلات والاختراعات الميكانيكية الأخرى؟	( )	( )	نعم
٢٥-	هل تحب قصص الحرب؟	( )	( )	نعم
٢٦-	هل تستمتع بتلوين صور الأطفال؟	( )	( )	لا
٢٧-	هل تشعر بالشفقة تجاه طائر مكسور الجناحين؟	( )	( )	لا
٢٨-	هل تفضل أن تكون طبيباً للأسنان على أن تكون مصمماً للأزياء؟	( )	( )	نعم
٢٩-	هل الثعابين تثير اشمئزازك؟	( )	( )	لا
٣٠-	عندما كنت طفلاً، هل كنت تستمتع باللعب بالبنادق؟	( )	( )	نعم